

التنشئة والهوية والحصانة النفسية لدى الناشئين الفلسطينيين في إسرائيل

يامة عبد القادر*

ملخص

يسلط هذا المقال الضوء على أهمية الهوية بمركباتها المختلفة (القومية؛ الوطنية؛ الدينية)، وعلاقتها بالتنشئة، وانعكاساتها على الحصانة النفسية لدى الناشئين الفلسطينيين مقارنةً بالناشئين اليهود. افترضت الدراسة وجود علاقة إيجابية بين التنشئة والهوية والحصانة النفسية لدى الناشئين الفلسطينيين واليهود. بالإضافة إلى ذلك، توقعت الدراسة ظهور اختلافات بين المجموعتين بالنسبة للعلاقات بين المتغيرات وبأولوية مركبات الهوية الوطنية لدى الناشئين اليهود والدينية لدى الناشئين الفلسطينيين؛ وذلك بسبب الاختلافات والفروق بين المجموعتين في جميع المجالات. اعتمدت هذه الدراسة منهجية البحث الكمي، واختير لها طلبة فلسطينيون ويهود من منطقة المركز. لفحص متغيرات البحث، اعتمدت الدراسة خمس استمارات أساسية: استمارة لقياس التنشئة؛ استمارة لقياس الهوية؛ وثلاث استمارات أخرى لقياس العوامل النفسية. أظهرت نتائج البحث الحالي أن نموذج البحث المقترح، الذي أجري لدى أقليتي إثنيتين مختلفتين، ملائم أيضًا لدى الناشئين الفلسطينيين، وكذلك الحال بالنسبة للناشئين اليهود. حسب النموذج، تبين أن جميع مركبات الهوية (القومية؛ الدينية؛ الوطنية) تقوم بدور الوسيط بين التنشئة وعوامل نفسية مختلفة. مع ذلك، بين النموذج خصوصية كل مجموعة.

مدخل

إن هبة أكتوبر عام 2000 كانت انتفاضة شعبية عفوية أظهرت الدور المحوري الذي قام به الشباب فيها. خروج الشباب إلى الشوارع لم يكن فقط احتجاجًا على انتهاك المسجد الأقصى، بل كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير، حيث عبر عن غضب محبوس في نفوس الشباب وعن استياء عارم من سياسة الدولة. هذه الهبة كانت قضية الشباب ونقطة مفصلية للجيلين الثالث والرابع بعد النكبة، عبرت عنها ردود بعض الطلبة الفلسطينيين في المقابلات التي أجريت معهم في أعقاب هذه الأحداث (راينوفيتش وأبو بكر، 2002). أما بالنسبة لي، فقد أثارت هذه الأحداث كثيرًا من التساؤلات لدي: لماذا الناشئون على وجه الخصوص هم من هبوا في تلك الأحداث، وحملوا نعوشهم على أكتافهم؟ ما هو مدى العلاقة بين تنشئتهم الوطنية وتشكيل وبرز هويتهم الوطنية؟ هذه التساؤلات دفعتني لأتحول في دراستي الأكاديمية إلى منحى آخر من "تدريس العلوم" إلى "التنشئة الوطنية" للناشئين الفلسطينيين في إسرائيل، ومن ثم أخذت بتطوير التساؤلات إلى أسئلة بحث في إطار أكاديمي.

الهدف من البحث:

الهدف من البحث هو فحص مدى العلاقة بين تطوّر و بروز مركّبات الهوية (القومية؛ الوطنية؛ الدينية)، وعلاقتها بالتنشئة وانعكاساتها على الحصانة النفسية (المتتمثلة في الكفاءة الذاتية والتقييم الذاتي والرفاه النفسي) لدى الناشئين الفلسطينيين -مقارنة بالناشئين اليهود.

إطار البحث النظري:

في برنامج دراسة الهوية الإثنية لدى جيل المراهقة من أبناء الأقليات الإثنية في الولايات المتحدة، طوّرت الباحثة Jean Phinney (1989) نموذجًا يتكوّن من ثلاث مراحل لتطوّر الهوية الإثنية يجمع بين تعريف الهوية الاجتماعية بحسب نظرية Henrie Tajfel وآخرين (Tajfel & Turner 1986; Tajfel, 1981) ونظرية Erikson (1968)، في علم النفس التطوري التي نصّت على أنّ استكشاف وبلورة الهوية يشكّلان أهمّ عوامل التطوّر النفسي في مرحلة المراهقة. وقد أظهرت دراسات عديدة أنّ هنالك علاقة إيجابية بين تطوّر و بروز الهوية الإثنية وعوامل نفسية عديدة (كالتقدير الذاتي والرفاه النفسي وغيرهما)

(Phinney & Chavira, 1992; Shrake & Rhee, 2004; Weaver, 2010).

وتمّة أبحاث أخرى تناولت العلاقة بين التنشئة الإثنية والهوية الإثنية

(Kim, 2014; Umaña-Taylor, Zeiders & Updegraff, 2013).

ثمّ طوّرت في الآونة الأخيرة نماذج عديدة أظهرت العلاقة بين التنشئة الإثنية وعوامل نفسية كثيرة، فيما شكّلت الهوية الإثنية الوسيط بين هذين المتغيّرين. غالبية هذه الأبحاث اعتنت بالناشئين الذين ينتمون إلى أقليات مختلفة

(Gartner, Kiang, & Supple, 2013; Nguyen, Wong, Juang & Park, 2015).

وبعضها قارنت بينهم وبين ناشئين ينتمون إلى مجموعة الأغلبية

(Phinney, Cantu & Kurtz, 1997; Phinney, Jacoby and Silva, 2007).

الناشئون الفلسطينيون في إسرائيل

دراسات كثيرة وباحثون كثر اعتنوا بهوية الأقلية الفلسطينية في إسرائيل بعامة، وبسياقات معرفية عديدة (علم النفس، نديم روحانا ورمزي سليمان؛ العلوم السياسية، أسعد غانم وعزمي بشارة؛ العلوم الاجتماعية، ماجد الحاج وسامي سموحا؛ اللغة والهوية، محمّد أمارة؛ التربية والتعليم، خالد أبو عصبه وإسماعيل أبو سعد وغيرهم). مع ذلك، وعلى الرغم ممّا ذكر سابقًا بشأن أهميّة مرحلة المراهقة في بلورة و بروز الهوية، ليس ثمة سوى أبحاث شحيحة خصّصت لهوية الناشئين (على سبيل المثال: أبو بكر وربينوفايتش، 2002 في أعقاب هبة أكتوبر؛ ولاحقًا البحث المقارن يئير أوران (أورون، 2010). أمّا بالنسبة لعلاقة الهوية بالتنشئة وانعكاساتها على الحصانة النفسية، فلم تتوافر أبحاث في هذا السياق. من هنا، فقد اعتمدت هذه الدراسة اعتمادًا أساسيًا النموذج الذي طوّر وأثبت لدى أقليات إثنية مختلفة، وبخاصة في الولايات المتحدة. وعليه، فُحص في البحث الحالي النموذج الذي اقترح علاقات إيجابية بين التنشئة والهوية والحصانة النفسية مع توسيعه ليشمل الهوية القومية - العربية، والهوية الدينية - الإسلامية، والهوية الوطنية - الفلسطينية في محاولة لاستكشافها وفحص شمولية النموذج لها، لدى الناشئين الفلسطينيين مقارنة مع الناشئين اليهود في إسرائيل. بالإضافة إلى ذلك، افترضت الدراسة ظهور فروق في التنشئة والهوية والحصانة النفسية بين الناشئين اليهود والناشئين الفلسطينيين؛ وذلك نظرًا للفروق القائمة بين المجموعتين في شتى المجالات، والتي تنجم جميعها عن كون الناشئين الفلسطينيين ينتمون إلى أقلية قومية ودينية ووطنية مقارنة بمجموعة الناشئين اليهود الذين ينتمون إلى مجموعة الأغلبية اليهودية.

افتراضات الدراسة:

التنشئة

التنشئة الوطنية لدى الناشئين اليهود أقوى من نظيرتها لدى الناشئين الفلسطينيين.
التنشئة الدينية لدى الناشئين الفلسطينيين أقوى من التنشئة الدينية لدى الناشئين اليهود.

الهوية

الهوية الوطنية لدى الناشئين اليهود أقوى من نظيرتها لدى الناشئين الفلسطينيين.
الهوية الدينية لدى الناشئين الفلسطينيين أقوى من نظيرتها لدى الناشئين اليهود.
الحصانة النفسية
الحصانة النفسية لدى الناشئين اليهود أقوى من نظيرتها لدى الناشئين الفلسطينيين.

كذلك افترضت الدراسة وجود علاقات إيجابية بين متغيرات البحث، على النحو التالي:

ثمة علاقة إيجابية بين التنشئة وبروز مركبات الهوية المختلفة.
ثمة علاقة إيجابية بين التنشئة وبروز مركبات الهوية من جهة، والحصانة النفسية من جهة أخرى.

منهجية البحث

اعتمدت هذه الدراسة منهجية البحث الكمي. لقياس متغيرات البحث المختلفة، استُخدمت خمس استمارات أساسية:
* قياس التنشئة: جرى تطوير الاستمارة ابتغاء قياس التنشئة الإثنية لدى أقليّات مختلفة في الولايات المتحدة. في البحث الحالي، جرت ترجمة هذه الاستمارة وملاءمتها لقياس التنشئة الدينية والوطنية لدى الطلبة الفلسطينيين واليهود، بالإضافة إلى قياس التنشئة القومية لدى الناشئين الفلسطينيين.
* استمارة لقياس الهوية الوطنية والهوية الدينية لدى الطلبة الفلسطينيين واليهود في إسرائيل - كلاً على حدة، بالإضافة إلى الهوية القومية لدى الطلبة الفلسطينيين.

* ثلاث استمارات أخرى في الحصانة النفسية اعتمدت لقياس كل من: التقييم الذاتي؛ الكفاءة الذاتية؛ الرفاه النفسي.
شارك في البحث 317 ناشئاً وناشئة من مرحلة سنّ الشباب (ما بين 16-17)، من بينهم 163 فلسطينياً مسلماً (70 ذكراً؛ 92 أنثى) و 154 يهودياً (84 ذكراً؛ 70 أنثى)، من مدارس في مركز البلاد.

التحليل الإحصائي: (SEM; REGRESSION; MANOVA)

نتائج البحث

أثبتت نتائج البحث صحة بعض الفرضيات؛ فقد تبين أنّ التنشئة والهوية الدينية لدى الناشئين الفلسطينيين أقوى من التنشئة والهوية الدينية لدى الناشئين اليهود. كذلك التنشئة الوطنية لدى الناشئين اليهود أقوى من التنشئة الوطنية لدى الناشئين الفلسطينيين.

أمّا بالنسبة للهوية الوطنية الفلسطينية، فقد أتت النتائج على العكس ممّا كان متوقعاً، أي لم تكن الهوية الوطنية الإسرائيلية أقوى من الهوية الوطنية الفلسطينية. وهذا يعني أنّ التنشئة الوطنية في البيت والمدرسة (التي تكاد لا تُذكر) هي ليست العامل الوحيد المسؤول عن بلورة وبروز الهوية الوطنية الفلسطينية لدى الناشئين الفلسطينيين. كذلك هو الشأن في ما يتعلق بنتائج متغيرات العوامل النفسية؛ إذ أتت مغايرة للفرضية ولم تكشف عن وجود فروق بين الناشئين الفلسطينيين والناشئين اليهود.

نموذج البحث

أظهرت نتائج البحث الحالي أن نموذج البحث المقترح وُجد ملائمًا لدى الناشئين الفلسطينيين والناشئين اليهود في إسرائيل. حسب النموذج، تبين أن جميع مركبات الهوية -الديني والوطني والقومي- تقوم بدور الوسيط بين التنشئة وعوامل نفسية مختلفة. بالإضافة إلى ذلك، بين النموذج خصوصية كل مجموعة، فبرز دور الهوية الوطنية - الإسرائيلية لدى الطلبة اليهود مقارنةً بدور الهوية الدينية - الإسلامية لدى الطلبة الفلسطينيين.

خلاصة

من أهم النتائج التي خلص إليها البحث بروز الهوية الوطنية - الفلسطينية لدى الناشئين الفلسطينيين، على العكس مما كان متوقعًا، وعلى الرغم من وهن التنشئة الوطنية الفلسطينية في البيت والمدرسة. ويمكن أن تُعزى هذه النتيجة إلى أكثر من تفسير. أما التفسير الأول، فهو بواسطة نتيجة البحث التي أظهرت إسهام التنشئة الإسلامية في بلورة وبروز الهوية الفلسطينية. ثمة تفسير آخر يتعلق بخصوصية الأقلية الفلسطينية في إسرائيل كأقلية مضطهدة وهويتها الجماعية معرضةً للطمس والتهميش. بحسب أبحاث عديدة، الهوية الإثنية لدى الناشئين الذين ينتمون إلى أقليات مضطهدة تكون على المحك، مما يحفز الناشئين إلى البحث عنها وتجديدها.

(Miville, Koonce, Darlington & Whitlock, 2000; Phinney, 1992). وقد أظهرت نتائج البحث الحالي أن الناشئين الفلسطينيين يهتمون بهويتهم الفلسطينية، ويبحثون عن مصادر للتعرف عليها على غرار أبناء الأقليات الأخرى التي تعاني التمييز والاضطهاد. هم ينخرطون في أطر اجتماعية وسياسية ويشاركون في فعاليات مختلفة لتعزيز هويتهم الفلسطينية، يفتخرون بانتمائهم إلى وطنهم وشعبهم، على الرغم من محاولات الطمس والتهميش لهويتهم في المدرسة وتجاهلها في البيت. هذه السيرورة تؤدي إلى تعزيز وبلورة الهوية على نحو ما وصفت أبو بكر وربينوفايتش: أبناء صف أسيل، الذين أجريت معهم مقابلة في آخر سنة 2000، رأوا في مقتل أسيل نقطة تحول بلورت هويتهم السياسية [...] كثيرون منهم أشاروا أنهم إلى ما قبل مقتل أسيل لم يعيروا أي اهتمام للصورة التي يعرفون بها أنفسهم: فلسطينيين؛ عرب؛ إسرائيليين؛ مسلمين؛ مسيحيين. منذ القتل، جميعهم يعرفون أنفسهم كفلسطينيين قبل كل شيء. (رابينوفايتش وأبو بكر، 2002، ص 51-52)

والتفسير الأخير يمكن أن يُعزى إلى أطر أخرى أسهمت في تطور وبرز الهوية الفلسطينية لدى الناشئين الفلسطينيين ولم تُبحث في الدراسة الحالية (كالأطر السياسية والاجتماعية، وشبكات التواصل الاجتماعي، والأصحاب...). أما بالنسبة للحصانة النفسية، فقد جاءت النتائج على العكس مما هو مفترض، ولم تظهر فروق بين المجموعتين، اليهودية والفلسطينية. وتتوافق هذه النتيجة مع وتيرة نتائج الأبحاث الأخيرة، التي تشير إلى تدني الفروق بين المجموعتين بالنسبة لعوامل الحصانة النفسية.

في ما يتعلق بنموذج البحث، بُرز نتائج البحث الحالي أن الوتيرة العامة أتت بحسب ما أثبت لدى أقليات كثيرة؛ حيث وُجد أن التنشئة القومية /الدينية أو الوطنية القوية تؤدي إلى بروز مركبات الهوية، والأخيرة بدورها تعزز الحصانة النفسية لدى الناشئين.

بالإضافة إلى ذلك، من الملاحظ أن خصوصية كل مجموعة تبرز أيضًا في النموذج. فقد برزت خصوصية الناشئين الفلسطينيين بالتنشئة الدينية العميقة والهوية الدينية القوية، بينما ظهرت التنشئة الوطنية العميقة والهوية الوطنية الإسرائيلية القوية لدى الناشئين اليهود.

ومما هو لافت للنظر، أنّ الدراسة أظهرت وجود علاقة قويّة بين مرّبات الهويّة المختلفة، حيث برز إسهام التنشئة الدينيّة والتنشئة القوميّة لجميع مرّبات الهويّة. لذا، على الرغم من خصوصيّة كلّ مرّب من هذه المرّبات، فإنّ الفصل التامّ بينها غير ممكن، وذلك يعود إلى تشابكها حضاريّاً وتاريخيّاً وثقافيّاً، بالإضافة إلى عامل اللغة.

أبحاث مستقبلية مقترحة

على ضوء نتائج هذه الدراسة، في الإمكان:

فحص ملاءمة النموذج (تنشئة؛ هويّة؛ حصانة نفسيّة) لدى مجموعات أخرى للأقليّة الفلسطينيّة في إسرائيل، إذ يقارن بين الناشئين المسلمين والدروز والمسيحيين، ومحاولة تعميمه للأقليّة الفلسطينيّة في إسرائيل. فحص أطر أخرى، بالإضافة إلى البيت والمدرسة، تسهم ويمكن أن يكون لها تأثير على تطوّر و بروز الهويّة الفلسطينيّة لدى الناشئين.

إجراء بحث يدمج بين جزء كميّ وجزء كيفيّ، وبهذا نضمن الموضوعيّة والدقّة بواسطة الجزء الكميّ من جهة، وتفادي الخطورة في التطبيق الميكانيكيّ للنظريّات من جهة أخرى. كذلك يمكن للجزء الكيفيّ أيضاً إضافة عمق وشموليّة أوسع للمفاهيم المراد بحثها، وخاصة مفهوم الهويّة.

أن تكون باحثاً فلسطينياً

العمل في منظومة ذات خصوصيّة وتحديات يعني ما هو أكبر بكثير من العمل في منظومة عاديّة؛ والمقصود بهذا أنّ المسؤوليّة في اختيار بحثك، وإيجاد الإطار المناسب له، ثمّ استثماره وتوظيفه لخدمة مجتمعك، أكبر بكثير ممّا في سياق آخر. فعلى سبيل المثال، في بحثي هذا كان عليّ أن أكتب مدخلاً طويلاً لإقناع القارئ (المشرف أو المحكم) أنّ تعريف الناشئين بأنهم "عرب" ليس دقيقاً، والتعريف الصحيح هو الفلسطينيون، وفي النهاية ووفقاً على تعريفهم بعرب - فلسطينيين. التحديّ الأكبر كان عندما فُحصت الاستثمارات، وكانت تتضمن أسئلة حول تاريخ الفلسطينيّين بما في ذلك النكبة بتعبير صريح. لم يعترض أحد على الاستثمارة في الجامعة، ولكن ووجهت معارضة من قِبَل دائرة كبير العلماء ("ليشكات همدعان هراشي")، وعندما صدّق عليها في نهاية المطاف، سعدت بذلك كإنجاز؛ وذلك لأنّه لا يمكن الاستمرار في البحث دون هذه المضامين. هذه عيّنة لجملة من التحديات والعثرات التي يمكن أن يواجهها طلبة الدكتوراة الفلسطينيّون، وعلى ما يبدو ستلازمهم في الأبحاث المستقبلية. بهذا، لا يمكن الفصل بين كونك باحثاً فلسطينياً عن السياق العامّ لخصوصيّة الفلسطينيّين عامّة والفلسطينيين في إسرائيل خاصّة. من الحريّ بالتنويه كذلك أنّ إضافة تاء التأنيث إلى "الباحث" تجعل الأمور أكثر تعقيداً ويصعب التطرّق إليها في هذا السياق.

Erikson, E. H. (1968). *Identity: Youth and Crisis*. New York: W.W. Norton.

Gartner, M., Kiang, L., and Supple, A. 2013. Prospective links between ethnic socialization, ethnic and American identity, and well-being among Asian-American adolescents. *Journal of Youth and Adolescence* 43(10): 1-13.

Kim, Ann Y. (2014). *Ethnic socialization and ethnic identity in Korean American adolescents and young adults : The relative roles of parents and friends*. (Doctoral dissertation). Retrieved from: <https://www.alexandria.ucsb.edu/downloads/z603qx55k>

Lee, R. M., Yun, A. B., Yoo, H. C., & Nelson, K. P. (2010). Comparing the ethnic identity and well-being of adopted Korean Americans with immigrant/U.S.-born Korean Americans and Korean international students. *Adoption Quarterly*, 13, 2-17

Miville, M.L., Koonce, D., Darlington, P., & Whitlock, B. (2000). Exploring the relationships between racial/cultural identity and ego identity among African Americans and Mexican Americans. *Journal of Multicultural Counseling and Development*, 28(4), 208-224.

Nguyen, C., Wong, J., Juang, L. & Park, I. (2015). Pathways among Asian Americans' family ethnic socialization, ethnic identity and psychological well-being: A multigroup mediation model. *Asian American Journal of Psychology*, 6, 273-280.

Phinney, J. (1989). Stages of ethnic identity development in minority group adolescents. *Journal of Early Adolescence*, 9(1-2), 34-49.

Phinney, J. & Chavira, V. (1992). Ethnic identity and self-esteem: An exploratory longitudinal study. *Journal of Adolescence*, 15, 271-281.

Phinney, J. S., Cantu, C. L., & Kurtz, D. A. (1997). Ethnic and American identity as predictors of self-esteem among African American, Latino, and White adolescents. *Journal of Youth and Adolescence*, 26, 165-185.

Phinney, J. S., Jacoby, B., & Silva, C. (2007). Positive intergroup attitudes: The role of ethnic identity. *International Journal of Behavioral Development*, 31, 478-490.

Shrake, E. K., & Rhee, S. (2004). Ethnic identity as a predictor of problem behaviors among Korean American adolescents. *Adolescence*, 39(155), 601-622.

Tajfel, H. (1981). *Human groups and social categories*. Cambridge: Cambridge University Press.

Tajfel, H. & Turner, J. (1986). The social identity theory of intergroup behavior. In S. Worchel & W. Austin (Eds.), *Psychology of intergroup relations* (2nd ed.) (pp. 7-24). Chicago: Nelson-Hall.

Umaña-Taylor, A. J., Zeiders, K. H., & Updegraff, K. A. (2013). Family ethnic socialization and ethnic identity: A family-driven, youth-driven, or reciprocal process? *Journal of Family Psychology*, 27, 137–146.

Weaver, D. (2010). *The relationship between cultural/ethnic identity and individual protective factors of academic resilience*. Retrieved from: http://counselingoutfitters.com/vistas/vistas10/Article_67.pdf

مصادر عبرية:

أورون. ي. (2010). هُويّات إسرائيلية: يهود وعرب أمام المرأة والآخر. تل أبيب: رستلينج (بالعبرية)
راينوفيتش. د. وأبو بكر. خ. (2002). جيل منتصب القامة. القدس: دار النشر كيت. (بالعبرية)

* يمامه عبد القادر هي باحثة وطالبة للقب الثالث في كلية التربية في جامعة بار إيلان.